اللغة العربية والتعريب
في العصر الحديث

الدكتور حسام الخطيب
جامعة إنديانا

«اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عنوان كتاب جديد ، يمكن أن يكون أحدث ما صدر في هذا الباب ، ألّفه الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس مجمع اللغة العربية الأردني . ويقع الكتاب في ٢٩٢ ص ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٧ ، وطبعته الثانية ١٩٨٨ .

يعالج هذا الكتاب أهم قضايا التعريب وما وصلت إليه جهود المؤسسات العربية في هذا الصدد ، وذلك على النحو التالي :

١ ـ اللغة العربية والمجامع اللغوية

ويتناول في هذا الباب جهود مجامع اللغة العربية في خدمة اللغة العربية ، ويخص مجمع اللغة العربية الأردني بتفصيلات وافية .

٢ ـ تعريب التعليم الجامعي والبحث العلمي

وينصب هذا الفصل على عملية تعريب التعليم في المملكة الأردنية الهاشمية بوجه خاص .

٣ ـ العربية وقضايا التعريب

ويتناول هذا الفصل وسائل تطوير اللغة العربية العلمية ، ودور التراث العلمي في تعريب العلوم والتقنيات ، وضرورة تأليف معجم موحد لألفاظ الحضارة .

مفهوم التعريب :

وفي المقدمة يبين المؤلف بوجه خاص مفهومه للتعريب ، وحسناً يفعل ذلك لأن هذا المفهوم يحتاج دائماً إلى تحديد ، ليس فقط لأن المصطلح نفسه يدل أيضاً على مفهوم آخر هو تحويل الكلمة الأجنبية إلى كلمة عربية دون اللجوء إلى الترجمة ، بل كذلك لئلا ينصرف الذهن إلى أن قضية التعريب هي قضية شكلية وآلية تتضمن نقل معارف الآخرين وعلومهم بالدرجة الأولى . يقول المؤلف :

«واستخدمت مصطلح «التعريب» بمفهومه الحديث الذي بات يدل على جعل العربية لغة التعليم في جميع مستوياته ، ولغة البحث العلمي والتقنيات الحديثة في الوطن العربي ، وهو مفهوم لا يقتصر على التعبير عن جميع أنواع المعرفة باللغة العربية ، بل يتعداه إلى تأصيل هذه العلوم وتلك المعارف في الفكر العربي وفي البيئة العربية والمجتمع العربي» .

وإذاً يلاحظ المؤلف أن عملية التعريب ليست مسألة تعبير لغوي فحسب وإنما هي مسألة (تأصيل) . وسوف نلاحظ من خلال استعراض كتب ومؤلفات أخرى أن نظرة الدكتور خليفة أقرب إلى الانضباط في موضوع التعريب ، وأن هناك مؤلفين آخرين نظروا إلى التعريب على أنه ثورة وتغيير شامل وتفجير حضاري .

والواقع أن ما أورده المؤلف من آراء في كتابه الحالي يكاد يتعدى هذا التعريف المتحفظ الذي قدّمه . وإن فصول الكتاب وصفحاته تكاد تردد باستمرار أن التعريب هو الوعاء الأساسي للنهوض الحضاري العربي المعاصر ، وأنه بدون هذا الشرط الحيوي يصعب أن يقوم علم عربي حيّ وفكر عربي ذو شخصية .

على أيّة حال ، تتوفر للكتاب وحدته النسبية (لا العضوية) من خلال المفهوم الذي طرحه المؤلف . وعلى الرغم مما يشير إليه المؤلف في المقدمة (ص ٥-٦) من أن الكتاب هو تنسيق لمجموعة بحوث ومقالات سبق نشرها في الدوريات العربية ، وعلى الرغم من أن هذه المواد نُشرت دون تعديل أو إعادة صياغة ، فإن الكتاب يوفر تسلسلاً فكرياً معقولاً ، ولا يشوبه سوى التكرار الذي كثر أحياناً ، ولا سيما فيما يتعلق بتجربة مجمع اللغة العربية الأردني ، وقد اعتذر المؤلف لذلك في المقدمة

(ص ٧) ، ولكنْ ربما كان القارىء يفضل ألا يكون هناك من التكرار ما يستوجب الاعتذار .

اللغة العربية والمجامع :

يبدأ هذا القسم من الكتاب بمقال يؤكد أن اللغة العربية أساس نهضتنا ووحدتنا ، ويلقي المؤلف نظرة تاريخية مفصلة على ماضي اللغة العربية والجهود العربية المبكرة للحفاظ عليها بوصفها لغة القرآن الكريم . ويؤكد في النهاية تفاؤله بمستقبلها ، وارتباط هذا المستقبل بمستقبل الأمة العربية ارتباطاً تبادلياً :

«ولا سبيل لأمتنا كي تلحق بركب الحضارة وأن تشارك مشاركة أصيلة في بناء هذه الحضارة إلا من خلال لغتها ، تلك اللغة التي تمثل الأساس الروحي والفكري الذي تقوم عليه وحدة هذه الأمة . فأمتنا العربية هي لغتنا العربية الفصحى ، ولغتنا العربية الفصحى هي أمتنا ، وبالتالي فهي أساس نهضة أمتنا ووحدتها» . ص ٤٠

ويلفت النظر هذا التأكيد للارتباط الجدلي (التعبير من عندي وأنا أحمل مسؤوليته لا المؤلف) بين الوجود القومي للأمة العربية والوجود اللغوي ، وسنرى من خلال المؤلفات المختلفة حول التعريب أن هذا التأكيد مقبول لدى جميع المؤلفين في موضوع التعريب . وإن كانت صيغة الربط التي يصرّ عليها الدكتور خليفة هي أقوى هذه الصيغ . وهي تذكرنا بالإصرار المبكر على هذا الربط بل التطابق الكامل لدى زكي الأرسوزي ، وإن كان الأرسوزي طبعاً ينطلق من مواقع فكرية مختلفة .

وفي مقالته الثانية يعرض المؤلف لنشأة المجامع اللغوية العربية ونشاطها في خدمة اللغة العربية والأساليب التي اعتمدتها في هذا المجال . ويذكرنا المؤلف بأن مجمع اللغة العربية بدمشق كان أسبقها إلى الظهور إذ تأسس بأمر من الحكومة العربية في شهر أيلول ١٩١٩ «وكان نشوء هذا المجمع صورة حقيقية لمسيرة التعريب في الوطن العربي ، وتوافقها مع مسيرة حركة التحرر والانعتاق من نير الأجنبي» ص ٥٠

وبالطبع يحسن أن نتذكر أن مجمع دمشق حمل أولاً تسمية : «المجمع العلمي العربي» وأنه استمر في عمله دون انقطاع ، وكان تأسيسه حافزاً لنشوء مجامع أخرى

في الأقطار العربية . ففي سنة ١٩٣٢ أنشىء مجمع القاهرة الذي استقّرت تسميته فيما بعد وأصبح «مجمع اللغة العربية» . وفي سنة ١٩٤٧ أنشىء المجمع العلمي العراقي ببغداد ، بعد محاولات سابقة ، وفي الأردن تأسس «مجمع اللغة العربية الأردني» في الأول من شهر تموز ١٩٧٦ ، كذلك بعد محاولة سابقة عام ١٩٢٤ .

ويلخص المؤلف جهود المجامع بما يلي :

١ ـ توسع واجتهادات من أجل إغناء اللغة العربية وجعلها مواكبة لمتطلبات العصر .
٢ ـ وضع المصطلحات .
٣ ـ الترجمة والتعريب .
٤ ـ وضع المعجمات .
٥ ـ تيسير تعليم اللغة العربية في النحو والصرف والكتابة .
٦ ـ إحياء التراث . (ص ٥٢)

ويقدم المؤلف تفصيلات واسعة حول هذه البنود ، وينتهي بالتركيز على ثلاث نقاط أساسية تحمل نظرة استراتيجية إلى قضية اللغة العربية والتعريب ، وهي :

١ ـ الدعوة إلى توحيد مجامع اللغة العربية في مجمع واحد .
٢ ـ دعوة مؤتمر القمة العربي إلى إتخاذ قرار تاريخي سياسي يقضي «بجعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع مستويات التعليم» .
٣ ـ دعوة مؤتمر القمة العربي إلى إتخاذ قرار تاريخي آخر بإنشاء مؤسسة للترجمة والتعريب والنشر على مستوى الوطن العربي . . . «ونحن نعتقد أن مثل هذه المؤسسة للترجمة والتعريب ستكون منطلقاً تاريخياً في حياة أمتنا العلميّة والحضارية» .[1]

ص . ص ٨٢ ـ ٨٣ .

---

(١) كتب هذا الكلام قبل إعلان نجاح المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في إنشاء المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر ، واختيار سورية العربية مقراً له .

وتدور المقالة الثالثة في هذا الباب حول مجمع اللغة العربية الأردني وجهوده ، وهي مصدر من الطراز الأول لتتبع تأسيس المعهد وجهوده . ويعنينا هنا موضوعان مهمان شديدا الاتصال بقضية التعريب :

الأول : مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية ، وهو ثمرة جهد متواصل لجماعة من الخبراء المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمياء ، وقد تمّ إنجاز هذا المشروع وعقدت ندوة في أول عام ١٩٨٧ في عمان من أجل تبنيه على النطاق العربي . ومن شأن هذا المشروع أن يحل في المستقبل معضلة كبيرة واجهت التدريس العلمي العربي منذ مطلع القرن حتى يوم الناس هذا .

ونترك للمؤلف إيراد الموضوع الآخر وما نشأ عنه من توصيات شديدة الاتصال بسياسة التعريب في الوطن العربي :

«أما الموضوع الآخر ، فقد تمخض عنه مؤتمر التعريب الخامس الذي كان لمجمع اللغة العربية الأردني شرف استضافته . وابتدأ هذا المؤتمر العتيد من يوم السبت في ١٩٨٥/٩/٢١ حتى مساء الأربعاء في ١٩٨٥/٩/٢٥ في عمل متواصل . وأضفى الشرعية على معجمات مهمة تشملُ نحو خمسين ألف مصطلح ، بعد أن أعدت خلال الأعوام الأربعة السابقة ، وألقيت فيه أبحاث مهمة تدور جميعها حول تعريب العلوم . وصدرت عدة توصيات ، من أهمها :

١ ـ إن اللغة العربية مقوم رئيس من مقومات وجود الأمة العربية ، وكلّ ضعف أو اضعاف يصيب اللغة هو خطر يتهدد الكيان العربي ووجوده .

٢ ـ إن تأصيل العلوم لا يكون إلا بلغتها ، ولذلك فإن لحاق الوطن العربي بالحضارة العالمية المعاصرة ، ومواكبته لها ، ومشاركته فيها ، يجب أن يبدأ باستخدام اللغة العربية لغة للتدريس في جميع مراحل التعليم وإعداد المصطلحات العلمية الموحدة المناسبة لذلك .

٣ ـ إن تأصيل اللغة لا يقتصر على الأخذ بها في مرحلة تعليمية دون مرحلة ، وإنما يجب أن يساير مراحل التعليم كلها ، منذ بدايته وحتى المراحل العليا من البحث العلمي ، بحيث يتيسر لأبناء هذه الأمة أن يعايشوها معايشة كاملة ، تساعد على تطويعها وتطويرها .

٤ ـ إن اللغة العربية قد دللت في مختلف مراحل تاريخها المديد وبحكم خصائصها أنها لغة حضارة ذات أبعاد إنسانية وعالمية ، وهي بهذا قادرة كلياً على أن تكون لغة العلم الحديث تدريساً وتأليفاً وبحثاً وتوليداً للمصطلح .

٥ ـ إن ما يهدف إليه التعريب هو بالدرجة الأولى توحيد المصطلح العلمي وتطبيق هذا المصطلح ، واستعماله ، وتداوله في كلّ مجالات حياتنا أداءً وإبلاغاً .

٦ ـ ويعرب المؤتمرون عن ارتياحهم للتقدم الفعلي الذي حققه التعريب حتى الآن في الوطن العربي ، وهم إذ يقدرون ما أسهم به العلماء والاختصاصيون العرب وما قدموا من جهود كبيرة في تعريب فروع كثيرة من فروع المعرفة والعلم ، فإنهم يؤكدون مرة أخرى على أن جهودهم لا تؤتى ثمراتها كاملة إذا لم تتخّذ الأمة العربية قرارها ، ومن أعلى مستويات المسؤولية ، بإلزام تداول ، واستعمال هذه المصطلحات على صعيد الوطن العربي كله ، وفي الوقت نفسه بإلزام مؤسسات التعليم العربية كلها بأن يكون التعليم فيها تأليفاً وتدريساً وبحثاً باللغة العربية . »

ص.ص ١٠٣ ـ ١٠٥

وبعيداً عن تقدير القارىء لحماسة الدكتور عبد الكريم خليفة لقضية المجامع اللغوية ، فإن الحذر العلمي ـ وربما المنطق السليم أيضاً ـ يقتضي أن ننبه إلى أن العرض الذي قدمه رئيس مجمع اللغة العربية الأردني للمجامع العربية هو عرض من داخل المؤسسة ، وشهادة واحد من أبرز الأهل والمحبين ، وإنها لشهادة ثقة ، ولكن من حقنا أن نشير إلى منحاها التقريظي الاعتذاري التمجيدي التعاطفي ، وإن مُتابع نشاط المعاجم العربية لا يستطيع أن ينسى ما قدّمه الجمهور العام وكذلك الطليعة المثقفة من انتقادات لعمل هذه المجامع كماً وكيفاً ، ولو قيست حصيلة عمل هذه المؤسسة بقدم تاريخها ، إذا إنها من أقدم المؤسسات العربية في هذا الباب ، لتبين أن الانتقادات التي تردّدت على ألسنة الخلق لم تكن بعيدة عن الحق . وكان المرء يتمنى لو أن صراحة الدكتور خليفة فاقت لباقته وبرّه بإخوانه ، ذلك أن هذه المجامع ملك عام للأمة العربية وتاريخها ، وليست المسألة مسألة الأساتذة القائمين عليها ، ممن تفاوتت أقدار نشاطهم تفاوتاً شديداً على مدى العقود السابقة . وقد كان الاتجاه الانتقادي قميناً أيضاً بإعطاء كل ذي حق حقّه .

تعريب التعليم الجامعي والبحث العلمي :

تضمن هذا الفصل الثاني من الكتاب المقالات التالية :

١ ـ تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير في الأردن .

٢ ـ تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم العلمي الجامعي .

٣ ـ تأهيل أعضاء هيئة التدريس الجامعي للتدريس بالعربية .

وفي المقالتين الأوليين يطلعنا المؤلف على جهود التعريب التي قامت بها المؤسسات المعنية في الأردن ، ولا سيما وزارة التربية ، قبل قيام المجمع عام ١٩٧٦ ، كما يقف موقفاً انتقادياً شديداً من اعتماد الجامعة الأردنية بعمان اللغة الإنكليزية لغة للتدريس «في جميع الكليات العلمية ، ومنها كلية الزراعة أيضاً !!!» .

كذلك يشير المؤلف بأسىً شديد الى أن جامعة اليرموك في إربد (. . . ترتد ، وإذا بها تدرّس مع الأسف باللغة الانكليزية جميع المواد ، ما عدا اللغة العربية بطبيعة الحال !!! وهذا يعني أنها تدرس باللغة الإنكليزية جميع العلوم الإنسانية التي كانت تدرسها الجامعة الأردنية بعمان منذ تأسيسها باللغة العربية مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتربية وعلم الجغرافية ، والعلوم السياسية والادارية والمحاسبة والاقتصاد . الخ . » ص ١١٨ .

وفي الصفحات التالية يقدم المؤلف عرضاً موثقاً لجهود مجمع اللغة العربية ، علمياً ورسمياً ، من أجل نشر التعريب وخدمة اللغة العربية .

وفي المقالة التالية يعرض لضرورة تأهيل أساتذة الجامعات للتدريس باللغة العربية ووضع برامج لتدريبهم لغوياً في أثناء الخدمة وإعدادهم أيضاً لوضع مقابلات عربية للمصطلحات العلمية والتقنية الجديدة ، وذلك بالتعاون مع المؤسسات المتخصصة ومجامع اللغة العربية «فقد دَلّت الإحصاءات التي بين أيدينا على أن عدد المصطلحات التي تُستحدث كل عام يربو على عشرين ألف مصطلح» ص ١٩٨ .

ومن مسؤولية كاتب هذه السطور أن يشير ، وهو الذي يعيش الآن مؤقتاً في الولايات المتحدة الأميركية وفي الوسط الجامعي ، أن أميركا وحدها تستنبط كل عام

أكثر من خمسين ألف مصطلح جديد . مما يستدعي أخذ هذا الموضوع بجدّيه حقيقية .

العربية وقضايا التعريب :

ويتطرق الفصل الأخير من الكتاب إلى قضايا داخلية في مسألة التعريب ، وأهم هذه القضايا :

- وسائل تطوير اللغة العربية .
- دور التراث العلمي في تعريب العلوم والتقنيات .
- نحو معجم موحد لألفاظ الحضارة .

ويعالج المؤلف موضوعه بكفاءة ممتازة ، وهو بالطبع ابن بجدتها لطول خبرته في مجال تدريس اللغة العربية في الجامعة الأردنية والبحث في جوانبها المختلفة ، كما أن رئاسته لقسم اللغة العربية ومجمع اللغة العربية الأردني أضافت إلى موقفه منظوراً عملياً عصرياً متطوراً .

ومن الصعب تلخيص هذا الفصل المهم جداً ، ولعله من الممكن الاكتفاء بعرض الموقفين التاليين :

أ ـ التأكيد بصريح العبارة وبشجاعة فكرية تستثير الإعجاب أن فريقي المتأجنبين والمتقوقعين يشكلان خطراً متماثلاً على اللغة العربية ومستقبلها . ففي حين يحمل المؤلف على دعاة اللغة الأجنبية لا ينسى أن يشير بوضوح إلى أن قضية التعريب من ناحية أخرى «ترتبط بذلك التيار الجامد المتقوقع على نفسه ، المتفيهق والمتقعّر بلغته ، والمتنطع في أسلوبه . فإن هذا التيار مع الأسف من حيث النتيجة هو الذي يمدُّ تيار المتنكرين للعربية وتراثها وقيمها بالحجج العاجزة» . ص ٢٣٤ .

ب ـ الحث على المرونة الشديدة في قضية المصطلح حتى يتاح للعربية مواكبة التطورات العلمية .

«يفتح باب الوضع للمحدثين على مصراعيه بوسائله المعروفة في نمو اللغة ، وأن يُرَدَّ الاعتبار إلى المُولَّد يرتفع إلى مستوى الكلمات القديمة ، وأن يُطلق القياس في الفصحى ليشمل ما قاسه العرب وما لم يقيسوه ، وأن يُطلق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين وغيرهم من كل ذي حرفة» .

على أن المؤلف يحتاط لما يؤدي إليه الانفتاح من فوضى وتداخل فيؤكد (أن قبول المسموع الشائع من هذه اللغات الأجنبية التي دخلت إلى لغة المصانع والحرف والمختبرات ولا سيما على نطاق البلاد العربية ، يوقعنا في البلبلة والترادف ، وهنا يأتي دور المجمع اللغوي الموحد الذي أشرنا إليه . فالألفاظ [illegible] قطر من الأقطار العربية تختلف باختلاف المؤثرات السياسية والاجتماعية . الخ . . .» ص ٢٣٨ .

هذا الموقفان من مسؤول في مثل مركز الدكتور عبد الكريم خليفة كفيلان فعلاً أن يذيبا الثلوج من حول الموقف اللغوي وأن يدفعا بقضية اللغة العربية العلمية والعملية إلى الأمام ، ولا سيما أنهما غير معزولَيْن ، ويترجمان عن موقف زملاء كثيرين للدكتور خليفة سواء في نطاق مجامع اللغة العربية أم في نطاق أقسام اللغة العربية في الجامعات ، وإن كانت هذه الأقسام ما زالت تنأى بنفسها عن دخول المعترك الذي خلقت في الأصل من أجل دخوله .

ختاماً ، تقتضي الأمانة العلمية التأكيد بدون مواربة أن كتاب «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» يشكل إضافة علمية مهمة في باب دراسة قضية التعريب من ناحيتين اثنتين على الأقل :

الأولى : تزويد القارىء بالتطورات الحساسة المستجدة في هذا الموضوع ، دون إهمال المنظور التاريخي ودون الوقوع في ملابسات المسارد التاريخية التي تخفق غالباً في إفراد ما هو حيٌّ وعملي عما هو مرتبط بذمة التاريخ .

الثاني : تقديم مقترحات عملية واستبصارات نظرية في موضوع التعريب ولا سيما في نطاق التعليم الجامعي ، وهي جميعاً حصيلة تجربة ومعاناة وانتماء وإحاطة ، مما يكسبها قيمة خاصة في المسيرة العربية المعاصرة من أجل إنجاز معركة التعريب ، أي معركة الوجود العربي الحضاري المعافى والمعاصر والمؤَنْسَن والمتطلع إلى المستقبل .

ـ للبحث صلة